جامعة الأزهر الشريف

كلية أصول الدين ــ القاهرة

تفسير سورة الغاشية

دراسة تحليلية

تأليف الدكتور

محمد عبد الرحمن محمد عبد الله

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية أصول الدين ــ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، أحمده رضيَ الحمد له، وأزكاه عنده، وأوجبه لبقاء نعمته، وأدعاه للمزيد من فضله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين..

أما بعد:

فالقرآن الكريم أنزله أحكم الحاكمين ﷻ علي قلب النبي الأمين محمد ﷺ ولم يجعل له عوجا قيما، يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما. جعله الله مهيمناً علي جميع الكتب السماوية التي سبقته ومصدقاً لها وقد كلف الله ﷻ رسوله ﷺ ببيان هذا الكتاب وتوضيحه للناس.

قال ﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1] فقام ﷺ ببيانه خير قيام عن طريق ما تلقاه من الوحي من معان عبر عنها النبي ﷺ بأبلغ ما يكون البيان، ولهذا يقول الرسول ﷺ: ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه[2]

ونستمد من هذا الهدي النبوي الكريم تفسير (سورة الغاشية) تفسيراً تحليلياً نتبع فيه ربط الآيات ببعضها، وتحليل الألفاظ والتراكيب، وبيان وجوه الإعراب، والأسرار البلاغية، والغرض الذي ترمي إليه الآيات.

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ في تفسير السورة الكريمة، أن أقدم بين يديها تعريفاً لها، أتحدث فيه عن زمان نزولها، وعن سبب تسميتها بهذا الاسم وعن بيان وجه المناسبة، وعن المقاصد والأهداف التي اشتملت عليها.

---

١) سورة النحل الآية: ٤٤.

٢) سنن أبي داود (٤٦٠٤)، والمسند للإمام أحمد: (١٧١٧٤).

بلاغته لأدائه إلي تحقيق مطابقة معانيه لما يقتضيه الحال.

قال الزركشي: وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوي بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.[1]

وسورة الغاشية هي السورة الثامنة والثمانون في ترتيب المصحف الشريف فيقع قبلها سورة الأعلى ويأتي بعدها سورة الفجر؛ وقد جرت عادة بعض المفسرين أن يعقدوا المناسبات بين سور القرآن الكريم.

أما وجه اتصالها بما قبلها فشرح ما في آخر « الأعلى » من تنزيه الله سبحانه من العبث بإثبات الدار الآخرة، وذكر بعض أحوال المكلفين فيها.

قال الإمام البقاعي: لما ختمت ﴿ سبح ﴾ بالحث على تطهير النفوس عن وضر الدنيا، ورغب في ذلك بخيرية الآخرة تارة، والاقتداء بأولي العزم من الأنبياء أخرى، رهّب أول هذه من الإعراض عن ذلك مرّة، ومن التزكي بغير منهاج الرسل أخرى، فقال تعالى مذكراً بالآخرة التي حث عليها آخر تلك مقرراً لأشرف خلقه ﷺ لأن ذلك أعظم في تقدير اتباعه وأقعد في تحريك النفوس إلى تلقي الخبر بالقبول ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾[1]

وقال الإمام النيسابوري: لما انجرّ الكلام في السورة المتقدّمة إلى ذكر الآخرة، شرح في هذه السورة بعض أحوال المكلفين فيها. اهـ [2]

وقال الإمام السيوطي: لما أشار ﷺ في سورة الأعلى بقوله ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الذي يَصْلَى النَارَ الكُبرى ﴾ إلى قوله ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبقى ﴾ إلى المؤمن والكافر، والنار والجنة إجمالا، فصل

[1]) نظم الدرر للبقاعي: ٩/ ٤٠٧ وفي بيان معني كلمة (وضر) قال الزمخشري: إناء وضرّ. ويدٌ وضرةٌ، وبها وضرٌ: وسخ من دسم أو غيره. اهـ أساس البلاغة: ٢/ ٢٠ (وضر).

[2]) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري: ٧/ ٣٢٩.

ذلك في هذه السورة فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما، على نمط ما هنالك، ولذا قال هنا ﴿عاملةٌ ناصبةٌ ﴾ في مقابل ﴿ الأَشْقَى﴾ هناك، وقال

هنا ﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ إلى ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ في مقابلة

﴿ يَصلى النارَ الكُبرى ﴾ هناك، ولما قال هناك في الآخرة ﴿ خيرٌ وأبقى ﴾ بسط هنا صفة الجنة أكثر من صفة النار، تحقيقاً لمعنى الخيرية. اهـ [1]

وأما وجه اتصالها بما بعدها فهو: الاستدلال علي آخر الغاشية الإياب والحساب والثواب والعقاب، وأول ما فيها علي هذا المقصود الفجر.[2]

قال الإمام البقاعي: لما ختمت تلك بأنه لا بد من الإياب والحساب وكان تغيير الليل والنهار وتجديد كل منهما بعد إعدامه دالاً على القدرة على البعث...فقال: ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ اهـ [3]

٤- المقاصد والأهداف التي اشتملت عليها.

بالتأمل في سورة الغاشية وتدبر آياتها نجد أن السورة الجليلة قد تناولت موضوعين أساسيين وهما:

١- القيامة وأحوالها وأهوالها، وبيان ما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء.

٢- لفتت أنظار الخلق إلي الأدلة والبراهين الدالة علي وحدانية الله ﷻ وقدرته الباهرة، في خلق الإبل العجيبة، والسماء البديعة، والجبال التي وضعت بهذه الصورة، والأرض الممتدة الواسعة، وكلها دلائل علي وحدانية الله ﷻ وعظيم سلطانه لكي يتفكروا ويتدبروا أن الخالق لهذه الأشياء علي

[1]) أسرار ترتيب القرآن للإمام السيوطي: ١/ ٢٢.

[2]) الأصلان في علوم القرآن: ا.د/ محمد عبد المنعم القيعي ص٢٤٩.

[3]) نظم الدرر: ٩/ ٤١٦ وانظر أسرار ترتيب القرآن للسيوطي: ١/ ٢٢.

هذا النحو البديع، هو المستحق للعبادة والطاعة، وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعاً إلى الله ﷻ للحساب والجزاء.

قال سيد قطب رحمه الله: "هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة الباعثة إلى التأمل والتدبر، وإلى الرجاء والتطلع، وإلى المخافة والتوجس وإلى عمل الحساب ليوم الحساب!

وهي تطوف بالقلب البشري في مجالين هائلين: مجال الآخرة وعالمها الواسع، ومشاهدها المؤثرة.

ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر، وآيات الله المبثوثة في خلائقه المعروضة للجميع.

ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين بحساب الآخرة، وسيطرة الله، وحتمية الرجوع إليه في نهاية المطاف. كل ذلك في أسلوب عميق الإيقاع، هادئ ولكنه نافذ. رصين ولكنه رهيب!" اهـ [1]

التفسير

هول القيامة وأحوال أهل النار

قال ﷻ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۞ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۞ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۞ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ :-

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال المشركون على سبيل التعنت: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزلت: ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ أي ليس فيه منفعة الغذاء ولا الاسمان ودفع الجوع كذبهم الله في قولهم يسمن الضريع، أو نبههم الله بعد تسليم أن ضريعهم مسمن على أن ضريع النار ليس كذلك أي كل ما في النار يجب أن يكون خالياً عن النفع [2]

[1] في ظلال القرآن: ٨/ ٢٦ وانظر صفوة التفاسير للصابوني: ٢٠/ ٥٠.

[2] انظر تفسير البغوي: ٨/ ٤٠٩ وتفسير النيسابوري: ٧/ ٣٣٠.

معاني المفردات والتراكيب:

قوله ﷻ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، وبه قال قطرب، أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية.

قال أبو السعود: وليس بذاك بل هو استفهام أريد به التعجيب مما في حيزه والتشويق الى استماعه والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد. اهـ [1].

والحديث: الخبر المتحدَّث به وهو فعيل بمعنى مفعول، أو الخبر الحاصل بحدثان أي ما حدث من أحوال ... و﴿ الغاشية ﴾ لفظ مشتق من الغشيان وهو تغطية الشئ لغيره، يقال: غشيه الأمر، إذا غطاه ... وتأنيث الغاشية لتأويلها بالحادثة ولم يستعملوها إلا مؤنثة اللفظ والتأنيث كثير في نقل الأوصاف إلى الإسمية مثل الداهية والطامة والصاخة والقارعة والآزفة. [2]

فالغاشية الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وهي القيامة، وقد ذهب إلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال محمد بن كعب وابن جبير: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله جل جلاله: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ والقول الأول هو الحق فإن ما سيُروى من حديثها ليس مختصاً بالنار وأهلها بل ناطقٌ بأحوال أهل الجنة أيضاً. [3]

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله:" والذي يظهر رجحانه والله تعالى أعلم: أنها في عموم القيامة وليس في خصوص النار، فالنار من أهوال ودواهي القيامة، وهو ما يشهد له القرآن في هذا السياق من عدة وجوه.

[1] تفسير أبي السعود: ٧/ ٤ وانظر فتح القدير: ٥/ ٥٤٠.

[2] انظر التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور: ١٦/ ٢٢٩.

[3] انظر روح المعاني: ٣٠/ ١١٢ والآية من سورة إبراهيم: ٥٠.

ومنها: أنه جاء بعدها قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ اتفقوا على يومئذ يعني يوم القيامة. ومنها: التصريح بعد ذلك، بأن من كانت تلك صفاتهم تصلى ناراً حامية، مما يدل على أن الغاشية شيء آخر سوى النار الحامية.

ومنها: أن التعميم ليوم يشمل جميع الخلائق، وهو الأنسب بالموقف، ثم ينجي الله الذين اتقوا .اهـ [1]

وقوله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ إلى قوله ﷺ: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال من الاستفهام التشويقيّ كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام: «ما أتاني حديثها، فما هو؟» فقيل: وجوهٌ يومئذٍ، أي يوم إذ غشيت ذليلة. [2]

والمراد بالوجوه أصحابُ الوجوه... والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس. [3]

قلت: القول بالعموم هو الأولى.

قال أبو حيان رحمه الله: والآية في القسيسين وعباد الأوثان وكل مجتهد في كفره .اهـ [4]

و﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة يطلق الخشوع على المذلة لقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [5] وقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [6]

وذلك لما اعتري أصحابها من الخزي والهوان.

قوله ﷺ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ عَامِلَةٌ اسم فاعل من العَمل، والمراد به هنا: العمل الشاق المهين.

قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلاً،

[1]) أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٩/ ١٦٠.

[2]) تفسير أبي السعود: ٧/ ٤.

[3]) تفسير القرطبي: ٢٢/ ٢٣٩ تحقيق د/ عبدالله التركي ط مؤسسة الرسالة ٢٠٠٦م.

[4]) تفسير البحر المحيط: ١٠/ ٤٧٠.

[5]) سورة الشورى الآية: ٤٥.

[6]) سورة المعارج الآية: ٤٤ وانظر التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٣٠.

ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عَمِل يَعْمَلُ عَمِلاً. وذا سحابٌ عَمِلٌ.

﴿نَاصِبَةٌ﴾ من النَّصب، بمعنى: التعب والإعياء يقال: نَصِبَ بالكسر يَنصَبُ نصَباً: إذا تعبَ. [1]

وقد اختلف في زمن العمل والنصب هذين، هل هو كان منها في الدنيا أم في الآخرة؟

فاختار كل من الإمام القرطبي والشوكاني الأول.

قال القرطبي رحمه الله: قوله ﷺ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل اهـ. [2]

وقال الشوكاني رحمه الله قوله ﷺ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي: تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي، وتنصب في ذلك.

وقيل: إنها عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، والأول أولى. [3]

واختار العلامة الألوسي والإمام ابن تيمية الثاني.

قال الألوسي رحمه الله: قوله ﷺ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي: عاملة في ذلك اليوم تعبة فيه وذلك في النار على ما روى عن ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة، وعملها فيها على ما قيل جرّ السلاسل والأغلال، والخوض فيها خوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلالها ووهادها، وذلك جزاء التكبر عن العمل وطاعة الله تعالى في الدنيا.

وعن زيد بن أسلم أنه قال أي عاملة في الدنيا ناصبة فيها لأنها على غير هدى فلا ثمرة لها إلا النصب وخاتمته النار. وجاء ذلك في رواية أخرى عن ابن عباس وابن جبير أيضاً.

والظاهر أن الخشوع عند هؤلاء باق على كونه في الآخرة وعليه فيومئذ لا تعلق له بالوصفين معنى بل متعلقهما في الدنيا ولا يخفى ما في هذا الوجه من البُعد وظهور أن العمل لا يكون في الآخرة بعد تسليمه لا يجدي نفعاً في دفع بُعْده.

[1]) انظر التفسير الوسيط اد/ محمد سيد طنطاوي: ١٥/ ٣٧٣ ط نهضة مصر ١٩٩٨م.

[2]) تفسير القرطبي: ٢٢/ ٢٣٩.

[3]) فتح القدير: ٥/ ٥٤٠.

وقال عكرمة عاملة في الدنيا ناصبة يوم القيامة؛ والظاهر أن الخشوع على ما مرّ ، ولا يخفى ما في جعل الخاط باستقباليين ماضوياً من البعد.

وقيل الأوصاف الثلاثة في الدنيا والكلام على منوال* إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة * أي ظهر لهم يومئذ أنها كانت خاشعة عاملة ناصبة في الدنيا من غير نفع، وأما قبل ذلك اليوم فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهؤلاء النساك من اليهود والنصارى كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ويشمل غيرهم مما شاكلهم من نساك أهل الضلال وهذا الوجه أبعد من أخويه. اهـ [1]

وقال الإمام ابن تيمية في المجموع عند تفسير السورة الكريمة بعد حكاية القولين السابقين ما ملخصه: الحق هو الثاني لوجوه:

الأول: أنه على القول الثاني يتعلق الظرف بما يليه، أي وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية.

أما على القول الأول فلا يتعلق إلاّ بقوله ﴿ تصْلى ﴾ ويكون قوله ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ صفة للوجوه، قد فصل بينها وبين الموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى.

والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى ناراً حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، والتقديم والتأخير، إنما يكون مع قرينة.

والثاني: أن الله ﷻ ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة الكريمة بعد ذلك ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي في ذلك اليوم، وهو يوم الآخرة: فالواجب تناظر القسمين أي في الظرف.

الثالث: أن نظير هذين القسمين ما ذكر في موضع آخر في

[1]) روح المعاني للألوسي: ١١٢/٣٠.

قوله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [1]

وفي موضع آخر في قوله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [2] وهذا كله وصف للوجوه في الآخرة.

الرابع: أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب في القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله ﷻ: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ [3] وقوله ﷻ: ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [4] وهذا الوجه لم تتضح دلالته على المقصود.

الخامس: أن قوله: ﴿ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإن هذا إلى المدح أقرب، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص ، لقيل : خاشعة للأوثان مثلاً، عاملة لغير الله، ناصبة في طاعة الشيطان، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً ولا وعيد عليه فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن، وهذا الوجه من أقواها في المعنى وأوضحها دلالة. وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام المغرورون بغيرهم، ويندمون غاية الندم يوم القيامة على إتباعهم إياهم، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾. [5]

السادس: وهو مهم أيضاً ، أنه لو جعل لهم في الدنيا لكان خاصاً ببعض الكفار دون بعض ، وكان

[1]) سورة القيامة الآيات ٢٢ : ٢٥.
[2]) سورة عبس الآيات ٣٨: ٤٢.
[3]) سورة الفتح الآية: ٢٩.
[4]) سورة محمد الآية: ٣٠.
[5]) سورة فصلت الآية : ٢٩.

مختصاً بالعباد منهم، مع أن غير العباد منهم يكونون أسوأ عملاً ويستوجبون أشد عقوبة.

السابع: أن هذا الخطاب لو جعل لهم في الدنيا لكان مثله ينفر من أصل العبادة والنسك ابتداء، وقد جاءت السنة بترك أصحاب الصوامع دون التعرض لهم بقتل ولا قتال، كما أنها أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم مما يشعر باحترامه أصل التعبد لعموم الجنس. اهـ [1]

وقد ذكر الرازي تقسيماً ثلاثياً فقال: هذه الصفات بأسرها حاصلة في الآخرة أو هي بأسرها حاصلة في الدنيا، أو بعضها في الآخرة وبعضها في الدنيا ولم يرجح قسماً منها. [2]

وقوله ﷻ: ﴿ تصلى ناراً حامِيَة﴾ أي: تدخل ناراً قد أحميت مُدداً طويلة فلا حرّ يعدل حرّها.

فوصف النار بـ ﴿ حَامِيَة ﴾ لإفادة تجاوز حرّها المقدار المعروف لأن الحمي من لوازم ماهية النار فلما وصفت بـ ﴿حَامِيَة ﴾ كان دالاً علي شدة الحمى قال ﷻ: ﴿ نَارُ الله المُوقَدَةُ ﴾ [3]

وقوله ﷻ ﴿ تَسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَة ﴾ أي: بلغت أناها في الحرّ. يقال: أنى الماء يأني كرمي يرمي إذا بلغ الغاية فى الغليان. ونظير هذه الآية قوله ﷻ: ﴿ يَطُوفونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ قال المفسرون: إن حرّها بلغ إلى حيث لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت. [4]

وفي قوله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ وردت عدة أقوال منها:

١- أنه نبت ذو شوك لاطئ بالأرض، وتسميه قريش «الشِّبْرِق»

١) انظر مجموع الفتاوى: ٢١٧/١٦ فما بعدها وأضواء البيان للشنقيطي: ٩/ ١٦٢: ١٦٣.
٢) التفسير الكبير: ١٤٣/٣١ وانظر أضواء البيان للشنقيطي: ٩/ ١٦٣.
٣) سورة الهمزة الآية :٦ وانظر تفسير النسفي: ٤/ ٢٦ والتحرير والتنوير: ١٦/ ٢٣٠.
٤) انظر تفسير البيضاوي: ٥/ ٣٩٣ والتفسير الكبير: ١٤٤/٣١ والآية من سورة الرحمن: ٤٤.

فإذا هاج سموه: ضريعاً، وبه قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة.

٢- أنه شجر من نار، قاله ابن عباس أيضاً.

٣- أنه في الدنيا: الشوك اليابس الذي ليس له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، قاله ابن زيد.

٤- أن الضريع بمعنى المضروع، أي الذي يضرعون عنده طلباً للخلاص منه، قاله ابن كيسان. [1]

قلت: ولا تعارض بين جميع هذه الأقوال فالضريع: هو شجرٌ فى النار يشبه الشوك، فيه ما فيه من المرارة والحرارة وقبح الرائحة.

قال القتيبي: ويجوز أن يكون الضريع، وشجرة الزقوم: نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار، وأغلالها وحياتها وعقاربها ولو كانت على ما نعلم لما بقيت على النار وإنما دلنا الله على الغائب عند الحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة والمعاني مختلفة، وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها. اهـ [2]

وقد أورد الإمام الفخر الرازي هنا سؤالاً والجواب عليه، وهو كيف ينبت الضريع في النار؟ فأجاب بالإحالة على تصور كيف يبقى جسم الكفار حياً في النار أبد الآباد، وكذلك الحيات والعقارب في النار [3]

قال الشنقيطي معلقاً علي كلام الفخر الرازي: وهذا وإن كان وجيهاً من حيث منطق القدرة، ولكن القرآن قد صرح بأن النار فيها شجرة الزقوم وأنها فتنة للظالمين في قوله ﷻ: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ [4]

١) انظر زاد المسير: ١٥٠/٦ والنكت والعيون: ٤١١/٤.
٢) تفسير اللباب لابن عادل: ٣١٤/١٦.
٣) انظر التفسير الكبير: ١٤٤/٣١.
٤) سورة الصافات الآيات: ٦٢-٦٦.

فأثبت شجرة تخرج في أصل الجحيم، وأثبت لها لازمها وهو طلعها في تلك الصورة البشعة، وأثبت لازم اللازم وهو أكلهم منها حتى ملء البطون.

والحق أن هذا السؤال وجوابه قد أثار المبطلون، ولكن غاية ما في الأمر سلب خاصية الإحراق في النار عن النبات، وليس هذا ببعيد على قدرة من خلق النار وجعل لها الخاصية اهـ[1].

ثم وصف ﷻ الضريع فقال: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ أي: لا يسمن الضريع آكله، ولا يدفع عنه ما به من الجوع.[2]

فقوله: ﴿يُسْمِنُ﴾ من السِّمَن – بكسر السين وفتح الميم – وهو وفرة اللحم والشحم في الحيوان وغيره. يقال: فلان أسمنه الطعام، إذا عاد عليه بالسِّمَن.

وقوله: ﴿يُغْنِي﴾ من الإغناء ودفع الحاجة، يقال: أغناني هذا الشئ عن غيره إذا كفاه واستغنى به عن سواه.[3]

ففي وصف الله ﷻ طعامهم بأنه ليس فيه منفعة الغذاء ولا الإسمان ودفع الجوع زيادة تقبيح هذا الطعام، وأنه شر محض، لا مكان لأية فائدة معه.

قال صاحب الكشاف: الضريع: اليابس من نبات الشبرق، وهو جنس من الشوك، ترعاه الإبل ما دام رطبا، فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل...

فإن قلت: كيف قيل: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وفي الحاقة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[4]

قلت: العذاب ألوان، والمعذبون طبقات، فمنهم: أكله الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع...

والضريع: منفعتا الغذاء منفيتان عنه: وهما إماطة الجوع، وإفادة القوة

[1]) أضواء البيان للشنقيطي: ٩/ ١٦٤.

[2]) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٥٤٢.

[3]) انظر التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٣١ والتفسير الوسيط: ٣٧٤/١٥.

[4]) سورة الحاقة الآية: ٣٦.

والسمن في البدن. أو أريد: أن لا طعام لهم أصلا، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم، فضلا عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع أو أسمن، وهما منه بمعزل كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس. تريد: نفي الظل على التوكيد. اهـ[1]

وجوه القراءات

قرأ الجمهور: ﴿عاملة ناصبة﴾ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ – ﴿وُجُوهٌ﴾ – أو على تقدير مبتدأ، وهما خبران له.

وقرأ ابن كثير في رواية شبل وحميد وابن محيصن ﴿عاملةً ناصبةً﴾ بالنصب علي الحال، أو علي الذم.

وقرأ الجمهور ﴿تَصْلَى﴾ بفتح التاء أي يُصيبُها صِليُ النار. وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿تُصْلَى﴾ بضم التاء من أصلاه النار بهمزة التعدية إذا أناله حرَّها.

وقرأ خارجة ﴿تُصَلَّى﴾ بضم التاء وفتح الصاد مشدد اللام للمبالغة.[2]

قال الإمام الطبري: قوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾...اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء الكوفة ﴿تصْلى﴾ بفتح التاء بمعنى: تصلى الوجوه. وقرأ ذلك أبو عمرو ﴿تُصْلَى﴾ بضم التاء اعتبارًا بقوله ﷻ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ والقول في ذلك أنهما قراءتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. اهـ[3]

وجوه الإعراب

قوله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ المرفوع مبتدأ وجاز الابتداء به وإن

[1]) تفسير الكشاف للزمخشري: ٧٤٢/٤.

[2]) انظر روح المعاني: ١١٢/٣٠ والتحرير والتنوير: ٢٣٠/١٦ وفتح القدير: ٥/ ٥٤١.

[3]) جامع البيان للإمام الطبري: ٣٨٣/٢٤ وانظر البحر المحيط: ١٠/ ٤٧٠، الحجة في القراءات السبع للإمام ابن خالويه طبعة دار الشروق ص ٣٦٩ ، السبعة في القراءات لابن مجاهد طبعة دار المعارف ص ٦٨١، النشر في القراءات العشر لابن الجزري طبعة دار الفكر ٤٠٠/٢.

كان نكرة لوقوعه في موضع التنويع والتفصيل، وقيل لأن تقدير الكلام أصحاب وجوه والخبر ما بعد والظرف متعلق به والتنوين عوض عن جملة أشعرت بها الغاشية أي يوم إذ غشيت.

و﴿ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ، نَاصِبَةٌ ﴾ أخبار ثلاثة عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾ وجملة: ﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ خبر رابع عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾ ويجوز أن تكون حالاً.

وأخبر عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾ خبراً خامساً بجملة ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أو هو حال من ضمير ﴿ تَصْلَى ﴾ لأن ذكر الاحتراق بالنار يُحضر في الذهن تطلب إطفاء حرارتها بالشراب فجُعلي شرابهم من عين آنية.

وجملة: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ ﴾ الخ خبر سادس عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾ وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ عائد إلى ﴿ وُجُوهٌ ﴾ باعتبار تأويله بأصحاب الوجوه ولذلك جيء به ضمير جماعة المذكر. والتذكير تغليب للذكور علي الإناث.[1]

الأسرار البلاغية:

اشتملت الآيات الكريمات علي ضروب من الفصاحة والبلاغة ما يلي:

١ــ الاستفهام في قوله ﷻ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ تضمن أسلوب التشويق إلي استماع الخبر والتنبيه والتفخيم لشأن الغاشية والتعظيم لأمرها.

وسميت القيامة غاشية على وجه الاستعارة لأنها إذا حصلت لم يجد الناس مَفراً من أهوالها فكأنها غاشٍ يغشى على عقولهم. ويطلق الغشيان على غيبوبة العقل فيجوز أن يكون وصف الغاشية مشتقاً منه.

٢ــ وفي قوله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابها هنا وفي مثل هذا المقام لأن حالة الوجوه تنبئ عن حالة أصحابها إذ الوجه عنوان عما يجده صاحبه من نعيم أو شقوة كما يقال: خرج بوجه غير الوجه الذي دخل به.

ويجوز أن يجعل إسناد الخشوع والعمل والنصب إلى ﴿ وُجُوهٌ ﴾ من

---

[1]) انظر روح المعاني: ١١٢/٣٠ والتحرير والتنوير: ١٦/ ٢٣٠ فما بعدها.

قبيل المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل، أي أصحاب وجوه...

وفي سرّ النصّ بـ ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ بدل ذليلة قال العلامة الألوسي رحمه الله: ولم توصف بالذل ابتداء لما في وصفها بالخشوع من الإشارة إلى التهكم وإنها لم تخشع في وقت ينفع فيه الخشوع. اهـ[1]

وقال ابن عاشور: وأوثر وصف ﴿ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ، نَاصِبَةٌ ﴾ تعريضاً بأهل الشقاء بتذكيرهم بأنهم تركوا الخشوع لله والعمل بما أمر به والنصبَ في القيام بطاعته فجزاؤهم خشوع مذلّة، وعمل مشقة، ونصَب إرهاق.[2]

وتنكيرُ الجوعَ في قوله ﷻ: ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ للتحقير أيْ لا يغني من جوع ما، وتأخير نفي الإغناء منه لمراعاة الفواصلِ والتوسل به إلى التصريح بنفي كلا الأمرين إذ لو قُدمَ لما احتيج إلى ذكر نفي الإسمين ضرورة استلزام نفي الإغناءِ عن الجوع إياه بخلاف العكسِ ولذلك كرر لا لتأكيد النفي.[3]

والآية من الاحتباك: نفي السمن أولاً يدل على إثبات الهزال ثانياً، ونفي الإغناء من الجوع ثانياً يدل على نفي الشبع أولاً.[4]

المعني الإجمالي:

هل بلغك – أيها الرسول العظيم أو أيها المخاطب – حديث يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، والتي تغشى الناس بدواهيها وشدائدها العظمى وزواجرها ونواهيها، إن كان لم يأتك فهذا خبرها.

---

[1]) المصدر السابق: ٢٢/ ٣٨٢ وانظر تفسير النسفي: ٤/ ٢٦.

[2]) التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٢٩ فما بعدها.

[3]) تفسير أبي السعود: ٥/٧.

[4]) انظر نظم الدرر للبقاعي: ٤١٠/٩ والاحتباك: هو حذف من الأول لدلالة الثاني وحذف من الثاني لدلالة الأول نحو قوله: ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ والتقدير: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخري كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت. اهـ الأصلان في علوم القرآن ا.د/ محمد عبد المنعم القيعي :ص٣٣١.

وافتتاح السورة الكريمة بهذا الافتتاح - بجانب ما فيه من تشويق - يدل على أهمية هذا الخبر، وأنه من الأخبار التي ينبغي الاستعداد لها، وذلك لما اشتملت عليه من معاني لا يصح التغافل عنها بأي حال من الأحوال.

ولما هوّل أمرها، زاد في التهويل بما ذكر من أحوالها في تفصيل الناس إلى شقي وسعيد، وبدأ بالشقي لأن المقام لإنذار المؤثرين للحياة الدنيا.

فقال في الأشقياء: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة مُخبتة من الخجل والفضيحة والخزي والخوف والحسرة التي لا تنفع في مثل هذا الوقت ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي: تاعبة في العذاب، تُجرّ على وجوهها وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عُدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة هباءً منثورًا.

ففي هذه الصفات زيادة توبيخ لأهل النار، لأنهم لما تركوا في الدنيا الخشوع لله ﷻ والعمل الصالح، وآثروا متع الدنيا على ثواب الآخرة.. كان جزاؤهم يوم القيامة، الإذلال، والعمل الشاق المهين الذي لا تعقبه راحة.

ثم أخبر ﷻ عن هذه الوجوه الشقية بأخبار أخرى فقال ﷻ: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: أن هذه الوجوه تشوى بالنار وتعذّب فيها وتقاسي شدة حرارتها يوم القيامة ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ فإذا عطشوا وطلبوا ما يطفئ ظمأهم جئ لهم بماء من عين بلغ من الحرارة غايتها فإذا قرّبوه منهم سقط لحم وجوههم، وإذا شربوا منه قطع أمعاءهم فهو لا يطفئ ظمأهم البتة.

ولما ذكر ما يسقونه على وجه عُلم منه أنه لا يلذذ ولا يروي من عطش أتبعه ما يطعمونه فقال حاصرًا له: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ أي إذا طلبوا الطعام جيء لهم

بالضريع، وهو نباتٌ كالشوك مرٌّ مُنتنٌ لا يفيد القوة والسمن في البدن، ولا يدفع الجوع عن آكله.

وإنما قدّم المشروب على الضريع المطعوم أو لأنهم إذا أثر فيهم حر النار غلب عليهم العطش وكان الماء عندهم أهم. [1] نسأل الله العفو والعافية.

وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصوره من الألم، الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية، ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه، وهو شوك لا نفع فيه ولا غناء.. من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم. وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله! [2]

ما ترشد إليه الآيات:

١- التذكير بأحوال القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأن من أسمائها الغاشية لأنها تغشي الخلائق بشدائدها، وتعمّهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة.

٢- الكفار يتعبون ويشقون بسبب جرّ السلاسل والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها

كما قال ﷻ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [3] وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله تعالى، وانهماكهم في اللذات والشهوات.

---

١) انظر المصدر السابق: ٩/ ٤٠٧:٤٠٨ وتفسير النيسابوري: ٧/ ٣٣٠ والتفسير الوسيط اد/ محمد سيد طنطاوي: ١٥/ ٣٧٣:٣٧٤ وتفسير الشيخ السعدي: ص٨٥٢.

٢) في ظلال القرآن: ٨/ ٢٧.

٣) سورة غافر الآيتان: ٧١:٧٢.

٣- أن هؤلاء الأشقياء يدخلون ناراً مسعَّرة شديدة الحرّ، تحيط بهم من كل مكان، ويسقون من عين متناهية الحرارة، وطعامهم الضريع الذي هو غاية في المرارة والنتن والخسة.

أحوال أهل الجنة

قال ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾

بيان المناسبة:

بعد بيان وعيد الكفار الأشقياء، وبيان حالهم ومكانهم وطعامهم وشرابهم ذكر الله ﷻ أحوال المؤمنين السعداء، وما وعدهم به ربهم، ليبين الفرق واصفاً ثوابهم وأهل الثواب، ثم وصف دار الثواب، لترغيب الناس وتشويقهم لما يلاقونه من فضل ربهم.

قال الإمام أبو السعود: وقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ شروعٌ في رواية حديث أهلِ الجنة، وتقديمُ حكاية حالِ أهلِ النار لأنه أدخلُ في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها، ولأنَّ حكاية حُسْنِ حالِ أهلِ الجنة بعد حكاية سُوءِ حالِ أهل النار مما يزيد المحكي حسناً وبهجة... وإنما لم تُعطف عليها إيذاناً بكمالِ تباينِ مضمونيهما. اهـ [1]

وقال الإمام الرازي: اعلم أنه سبحانه لما ذكر وعيد الكفار، أتبعه بشرح أحوال المؤمنين، فذكر وصف أهل الثواب أولاً، ثم وصف دار الثواب ثانياً أما وصف أهل الثواب فبأمرين أحدهما: في ظاهرهم، وهو قوله: ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي ذات بهجة وحسن، كقوله ﷻ: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أو متنعمة. والثاني: في باطنهم وهو قوله تعالى: ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾... وأما

[1]) تفسير أبي السعود: ٥/٧ وانظر روح المعاني: ٣٨٩/٢٢.

وصف دار الثواب، فاعلم أن الله تعالى وصفها بأمور سبعة. اهـ [1]

معاني المفردات والتراكيب:

قوله ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ معنى ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ ذات نعومةٍ أو تنعم. [2]

وذلك لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وما أعدّه الله سبحانه وتعالى لهم من الخير الذي يفوق الوصف، فالمراد بالوجوه: وجوه المؤمنين.

قال ابن عاشور: يتبادر في بادئ الرأي أن حق هذه الجملة أن تعطف على جملة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ بالواو لأنها مشاركة لها في حكم البيان لحديث الغاشية كما عطفت جملة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [3] على جملة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [4] فيتجه أن يُسأل عن وجه فصلها عن التي قبلها.

ووجه الفصل التنبيه على أن المقصود من الاستفهام في ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ الإعلام بحال المعرَّض بتهديدهم وهم أصحاب الوجوه الخاشعة فلما حصل ذلك الإعلام بجملة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ إلى آخرها تم المقصود، فجاءت الجملة بعدها مفصولة لأنها جعلت استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤال مقدر تثيره الجملة السابقة فيتساءل السامع: هل من حديث الغاشية ما هو مغاير لهذا الهول؟ أي ما هو أنس ونعيم لقوم آخرين.

ولهذا النظم صارت هذه الجملة بمنزلة الاستطراد والتتميم، لإظهار الفرق بين حالي الفريقين ولتعقيب النذارة بالبشارة فموقع هذه الجملة المستأنفة موقع الاعتراض ولا تنافي بين الاستئناف والاعتراض وذلك موجب لفصلها عما قبلها. وفيه جري القرآن على سننه من تعقيب الترهيب والترغيب.

[1]) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٤٦/٣١.
[2]) غرائب القرآن للنيسابوري: ٣٣٠/٧
[3]) سورة عبس الآية: ٤٠.
[4]) سورة عبس الآية: ٣٨.

فأما الجملتان اللتان في سورة عبس فلم يتقدمهما إبهام لأنهما متصلتان معاً بالظرف وهو ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ [1] وقد علم من سياق توجيه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن الوجوه الأولى وجوه المكذبين بالرسول والوجوه المذكورة بعدها وجوه المؤمنين المصدقين بما جاء به .اهـ [2]

وقوله ﷻ: ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية لأنها قد وجدت من الثواب عليه في الآخرة، أكثر مما كانت تتوقع وترجو.

فالمراد بالسعي: العمل الذي يسعاه المرء ليستفيد منه ويحقق رضا الله ﷻ.

قال الإمام النسفي: قوله ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي: رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أداهم إليه من الكرامة والثواب .اهـ [3]

قوله ﷻ: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أريد بالجنة مجموع دار الثواب الصادق بجنات كثيرة أو أريد به الجنس مثل ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ [4] ووصف ﴿ جَنَّةٍ ﴾ بـ ﴿ عَالِيَةٍ ﴾ لزيادة الحسن لأن أحسن الجنات ما كان في المرتفعات، قال ﷻ: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ [5] فذلك يزيد حسن باطنها بحسن ما يشاهده الكائن فيها من مناظر، وهذا وصف شامل لحسن موقع الجنة. [6]

والجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض.

والجَنةُ: كلّ بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. وأصل الجن ستر الشئ عن الحاسة، يقال: جنَّه الليل وأجنه وجنَّ عليه فجنَّهُ ستره. [7]

---

[1]) سورة عبس الآية:٣٣.

[2]) التحرير والتنوير:١١٧/١٦.

[3]) تفسير الإمام النسفي:٢٦/٤وانظر التفسير الوسيط: ٣٧٥/١٥.

[4]) سورة التكوير الآية:١٤.

[5]) سورة البقرة الآية:٢٦٥.

[6]) انظر التحرير والتنوير:١١٧/١٦.

[7]) المفردات للراغب:ص٩٨(جن).

٢٤

قوله ﷻ: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أي: لغواً ولا باطلاً [1] لأنهم يسمعون بالله؛ فليس فيها كلمة لغو. فإن كلام أهل الجنة كله أذكار وحكم. [2]

فالمراد باللغو: الكلام الساقط الذي لا فائدة فيه.

قال الراغب: اللغو من الكلام ما لا يعتد به وهو الذي يورد لا عن روية وفكر... وقد يسمي كل كلام قبيح لغواً .اهـ [3]

وفي المراد باللغو هنا: سبعة أقاويل: أحدها: يعني كذباً قاله ابن عباس. الثاني: الإثم، قاله قتادة. الثالث: أنه الشتم، قاله مجاهد. الرابع: الباطل، قاله يحي بن سلام. الخامس المعصية، قاله الحسن. السادس: الحلف فلا تسمع في الجنة حالف يمين برّة ولا فاجرة، قاله الكلبي. السابع: لا يسمع في كلامهم كلمة لغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم، قاله الفراء. [4]

وهذا أرجح الأقوال لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص. [5]

والخطاب في قوله ﷺ: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ خطاب لكل من يصلح للخطاب أو هو مسند إلى ضمير الغائبة المؤنثة وهو راجع للوجوه على أن المراد بها أصحابها. [6]

قوله ﷻ: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي عيونٌ كثيرةٌ تجري مياهُها بماء مندفق وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود. [7]

قال صاحب الكشاف: قوله: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ يريد عيونا في

---

[1]) الوجيز للإمام الواحدى:١١١٣/١.

[2]) انظر تفسير أبي السعود:٦/٧ وتفسير القشيري: ٧٢/٨.

[3]) المفردات للراغب:ص٤٥١(لغا).

[4]) انظر النكت والعيون للما وردي:٤١٢/٤.

[5]) فتح القدير للشوكاني: ٥٤٣/٥.

[6]) روح المعاني: ١١٥/٣٠.

[7]) تفسير أبي السعود:٦/٧ وتفسير اللباب لابن عادل: ٣١٧/١٦.

غاية الكثرة كقوله: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ "[1]

وقال القشيري: قوله: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أراد عيوناً؛ لأن العين اسم جنس، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة.

ويقال: تلك العيون الجارية غداً لمَنْ له - اليومَ - عيونٌ جارية بالبكاء، وغداً لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء. اهـ[2]

فالمراد بالعين هنا: جنس العيون، وبالجارية: التي لا ينقطع ماؤها وشرابها.

قوله ﷻ: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أي في الجنة أماكن يجلس عليها أهلها جلوسا مرتفعا عن الأرض.. والسُرر: جمع سرير وهو الشئ ذو القوائم المرتفعة الذي يتخذ للجلوس والاضطجاع. ولما كان الارتفاع عن الأرض مأخوذاً في مفهوم السرر كان وصفها بـ ﴿ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ لتصوير حُسنها.

قوله: ﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ جمع كوب وهو إناء لا عروة له، فهو صالح للمناولة والشرب من كل جهة ﴿مَّوْضُوعَةٌ ﴾ أي بين أيديهم لا يعوزهم تفقدها.

قوله: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ النمارق: جمع نُمْرُقة - بضم النون وسكون الميم وضم الراء - وهى الوسادة الصغيرة التي يتكئ عليها الجالس والمضجع. أي: وفى الجنة وسائد كثيرة، قد صف بعضها إلى جانب بعض صفا جميلا، بحيث يجدها الجالس قريبة منه فى كل وقت.

قوله: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ الزرابى جمع زَرْبيّة بفتح الزاي وسكون الراء وكسر الموحدة وتشديد الياء وهى البساط الواسع الفاخر، أو ما يشبه من الأشياء الثمينة التي تتخذ للجلوس عليها. والمبثوثة: أي المنتشرة على

---

[1] تفسير الكشاف للزمخشري: ٤/ ٧٤٣والآية من سورة التكوير: ١٤.

[2] تفسير القشيري: ٨/ ٧٢ وانظر البحر المحيط لأبي حيان: ١٠/ ٤٧١.

الأرض من البث بمعني النشر.[1] وإنما خاطبهم على مقادير فُهومهم.

وجوه القراءات:

قوله: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: بالياء من تحت مضمومة؛ على ما لم يسم فاعله، ﴿ لَاغِيَةً ﴾ رفعاً لقيامه الفاعل.

وقرأ نافع كذلك إلا أنه بالتاء من فوق، والتذكير والتأنيث واضحان؛ لأن التأنيث مجازي.

وقرأ الباقون: بفتح التاء من فوق، ونصب: ﴿ لَاغِيَةً ﴾ فيجوز أن تكون التاء للخطاب، أي: لا تسمع أنت، وأن تكون للتأنيث، أي: لا تسمع الوجوه.

وقرأ الفضلُ والجحدري: ﴿ لَا يَسْمَعُ ﴾ بياء الغيبة مفتوحة ﴿لَاغِيَةً﴾ نصباً أي: لا يسمع فيها أحد.[2]

قال أبو حيان في البحر: قرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهم ﴿ لَا تَسْمَعُ ﴾ مبنياً للمفعول ﴿لَاغِيَةً﴾ رفع أي كلمة لاغية، أو جماعة لاغية، أو لغو، فيكون مصدراً كالعاقبة، ثلاثة أقوال الثالث لأبي عبيدة وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك. إلا أنهم قرؤوا بالياء لمجاز التأنيث. والفضل والجحدري كذلك، إلا أنه نصب لاغية على معنى لا يسمع فيها، أي أحد من قولك: أسمعت زيداً والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وقتادة وابن سيرين ونافع في رواية خارجة وأبو عمرو بخلاف عنه؛ وباقي السبعة: لا تسمع بتاء الخطاب عموماً، أو للرسول عليه الصلاة والسلام، أو الفاعل الوجود. اهـ[3]

وقال الإمام الطبري: واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء الكوفة وبعض قرّاء المدينة وهو أبو

---

[1] انظر نظم الدرر للبقاعي: ٩/ ٤١٢ والتحرير والتنوير لابن عاشور: ١٦/ ٢٣٥.

[2] الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٣٦٩، النشر ٢/ ٤٠٠، تفسير اللباب لابن عادل: ١٦/ ٣١٧.

[3] البحر المحيط: ١٠/ ٤٧١.

جعفر ﴿ لَا تَسْمَعُ ﴾ بفتح التاء، بمعنى: لا تسمع الوجوه.

وقرأ ذلك ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ لَا تُسْمَعُ ﴾ بضم التاء، بمعنى ما لم يسمّ فاعله ويؤنث تسمع لتأنيث لاغية. وقرأ ابن محيصن بالضم أيضًا، غير أنه كان يقرؤها بالياء على وجه التذكير.

والصواب من القول في ذلك عندي، أن كلّ ذلك قراءات معروفات صحيحات المعاني، فبأيّ ذلك قرأ القارئ فمصيب .اهـ[1]

وجوه الإعراب:

قوله ﷺ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ القول في تنكير ﴿ وُجُوهٌ ﴾ والمراد بها والإخبار عنها بما بعدها، كالقول في الآيات التي سبقتها.

و﴿ نَاعِمَةٌ ﴾ خبر عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾ و ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ خبر ثانٍ عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾ والمجرور في قوله: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ خبر ثالث عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾.

وجملة: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ جَنَّةٍ ﴾ تُرك عطفها على الصفة التي قبلها لأن النعوت المتعددة يجوز أن تعطف ويجوز أن تفصل دون عطف.

والتاء للخطاب، والفعل مبني للمعلوم و﴿ لَاغِيَةً ﴾ مفعول ﴿ تَسْمَعُ ﴾ و﴿ لَاغِيَةً ﴾ مصدر كالعافية والعاقبة.

وقوله: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ صفة ثالثة لـ ﴿ جَنَّةٍ ﴾... وإنما لم تعطف على الجملة التي قبلهما لاختلافهما بالفعلية في الأولى والاسمية في الثانية وذلك الاختلاف من محسنات الفصل ولأن جملة: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ مقصود منها التنزه عن النقائص وجملة: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ مقصود منها إثبات بعض محاسنها.

وقوله ﷺ: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ صفة رابعة لجنة.

(1) تفسير الطبري: ٢٤/٣٨٦.

وأعيد قوله: ﴿ فِيهَا ﴾ دون أن يعطف ﴿ سُرُرٌ ﴾ على ﴿ عَيْنٌ ﴾ عطف المفردات لأن عطف السرر على ﴿ عَيْنٌ ﴾ يبدو نابيًا عن الذوق لعدم الجامع بين عين الماء والسرر في الذهن لولا أن جمعها الكريم في الجنة فلذلك كرر ظرف ﴿ فِيهَا ﴾ تصريحًا بأن تلك الظرفية هي الجَامع، ولأن بين ظرفية العين الجارية في الجنة وبين ظرفية السرر وما عطف عليه من متاع القصور والأثاث تفاوتًا ولذلك عطف ﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ لأنها متماثلة في أنها من متاع المساكن الفائقة.

وهذا وصف لمحاسن الجنة بمحاسن أثاث قصورها فضمير فيها عائد للجنة باعتبار أن ما في قصورها هو مظروف فيها بواسطة.[1]

الأسرار البلاغية:

قوله: ﴿ لِسَعْيِهَا ﴾...متعلق بقوله ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ والتقديم للاعتناء مع رعاية الفاصلة واللام ليست للتعليل بل مثلها في رضيت بكذا فكأنه قيل ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ بسعيها وذكر بعض المحققين – كما يقول الألوسي – أنها مقوية لتعدي الوصف بنفسه ولذا قال سفيان في ذلك كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم رضيت عملها ورضاها به كناية أو مجاز عن أنه محمود العاقبة مجازي عليه أعظم الجزاء وأحسنه وقيل في الكلام مضاف مقدر أي لثواب سعيها راضية...

وقوله: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ قيل يجري ماؤها ولا ينقطع وعدم الانقطاع إما من وصف العين لأنها الماء الجاري فوصفها بالجريان يدل على المبالغة كما في ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾[2] وإما من اسم الفاعل فإنه للاستمرار بقرينة المقام والتنكير للتعظيم، واختار الزمخشري كونه للتكثير كما في ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي عيون كثيرة تجري مياهها.[3]

(1) انظر التحرير والتنوير: ١٦/٢٣٢ فما بعدها.

(2) سورة القارعة الآية: ١١.

(3) روح المعاني: ٣٠/١١٥.

وبين ﴿ مَرْفُوعَةٌ ﴾ و ﴿ مَوْضُوعَةٌ ﴾ إيهام الطباق لأن حقيقة معنى الرفع ضد حقيقة معنى الوضع، ولا تضادَّ بين مجاز الأول وحقيقة الثاني ولكنه إيهام التضاد... وقد قوبلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة فقوبلت صفات ﴿ خَاشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ بصفات ﴿ نَاعِمَةٌ ۞ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ [وقوبل قوله: ﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ بقوله: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾

وقوبل: ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ بقوله: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ وقوبل شقاء عيش أهل النار الذي أفاده قوله: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ بمقاعد أهل الجنة المشعرة بترف العيش من شراب ومتاع.

وهذا وعد للمؤمنين بأن لهم في الجنة ما يعرفون من النعيم في الدنيا وقد علموا أن ترف الجنة لا يبلغه الوصف بالكلام وجمع ذلك بوجه الإجمال في قوله ﷻ: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [1] ولكن الأرواح ترتاح بمألوفاتها فتعطاها فيكون نعيم أرواح الناس في كل عصر ومن كل مصر في الدرجة القصوى مما ألفوه ولا سيما ما هو مألوف لجميع أهل الحضارة والترف وكانوا يتمنونه في الدنيا ثم يُزادون من النعيم « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » [2]

المعنى الإجمالي:

وأما أهل الخير والسعادة، فوجوههم يوم القيامة ذات نعمة وبهجة ونضرة وحُسن، قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وقبول عملهم، فهي لعملها الذي

[1]) سورة الزخرف الآية: ٧١.

[2]) انظر التحرير والتنوير: ١٦/٢٣٢ فما بعدها.

عملته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله راضية، رضيت عملها؛ لأنها قد وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه.

وذلك أنها ﴿ فِي جَنَّةٍ ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها ﴿ عَالِيَةٍ ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة. [1]

ثم وصف ﷻ هذه الجنة بجملة من الصفات الكريمة فقال: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أيّ كلمة باطلة تنغص سعادتهم ولا كلمة نابية تقلق راحتهم فهي مترهة عن اللغو، إذ أنها مترل جيران الله وأحبائه، وقد نالوها بالجد والعمل لا باللغو، ومترل أهل الشرف في الدنيا تكون مبرأة من اللغو والكذب والبهتان، فكيف بأرفع المجالس في جوار ربِّ العالمين سبحانه.

ولما وصف ﷻ الجنة بأول ما يعتبر فيها وهو عدم المنغص، أتبعه ما يطلب بعده وهو تناول الملتذات، وكان الأكل قد فهم من ذكر لفظ الجنة، ذكر المشروب لذلك ولدلالته إذا كان جارياً على زيادة حسن الجنة وكثرة ما فيها من النعيم المقيم. [2] فقال: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ يريد عيونا في غاية الكثرة تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة الصافية.

وفيها أسرة عالية مفروشة بما هو ناعم الملمس، كثيرة الفرش، مرتفعة ليروا إذا جلسوا عليها، جميع ما خولوه من النعيم والملك، كما قال ﷻ: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [3] وفي ذلك من التشريف والتكريم ما لا خفاء فيه.

وفي الجنة أكواب كثيرة قد وضعت بين أيدي أهلها، بحيث لا يعوزهم تفقدها، يشربون منها متى

[1]) انظر تفسير السعدي: ص٨٥٢.

[2]) انظر نظم الدرر للبقاعي: ٩/٤١٢.

[3]) سورة الواقعة الآية: ٣٤.

أرادوا، وفيها وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله قد صُفت للجلوس والاتكاء عليها، وفيها بُسط فاخرة منتشرة هنا وهنا في المجالس، كثيرة، تغري بالجلوس عليها ويستمتع الناظر إليها، وفيها معاني الأبهة والفخامة.

ما ترشد إليه الآيات:

١ـ بيان وصف الله ﷻ أهل السعادة والثواب، ودار الثواب بأوصاف جميلة رائعة الجمال والمتعة، وذلك لإغراء الناس بها، وترغيبهم في الحصول عليها إذا عملوا عمل أصحابها المستحقين لها.

وتأكيد ذلك حديث النبي ﷺ: ألا هل من مُشمِّر للجنة، فإن الجنة لا خَطَر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية؟ قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها. قال: قولوا: إن شاء الله. قال القوم: إن شاء الله.[1]

فأهل الثواب لهم صفتان ظاهرية وباطنية، فوجوه المؤمنين ذات نعمة وبهجة ونضرة، ولعملها الذي عملته في الدنيا راضية في الآخرة.

ودار الثواب لها صفات سبع كما سبق:

الأولى: في جنة عالية، أي مرتفعة، وعالية القدر؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وما تلذ الأعين.

الثانية: لا تسمع فيها كلاماً ساقطاً غير مرضي،ولا تسمع فيها كلمة لغو

(1) تفسير ابن كثير: ٤٥٧/٤ وقال:" ورواه ابن ماجة عن العباس بن عثمان الدمشقي، عن الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر به" والحديث في البعث لابن أبي داود برقم (٧١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيري في الزوائد (٣٢٥/٣): "هذا إسناد فيه مقال، الضحاك المعافري ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي في طبقات التهذيب: "مجهول". وسليمان بن موسى مختلف فيه وباقي رجال الإسناد ثقات".

الثالثة: فيها عين شراب جارية علي وجه الأرض، من غير أخدود وتجري لهم كلما أرادوا، بماء غير آسن مندفق وبأنواع الأشربة اللذيذة من خمر وعسل ولبن.

الرابعة: فيها سرر عالية المكان، مرتفعة السماء.

الخامسة: فيها أكواب موضوعة علي حافات العيون كلما أرادوا الشرب وجدوها.

السادسة: فيها وسائد مصفوف بعضها علي جوانب بعض.

السابعة: فيها البسط المبسوطة، والطنافس التي لها خَمْل رقيق والكثيرة المتفرقة في المجالس.

نسأل الله أن نكون جميعاً من أهلها.

إثبات قدرة الله ﷻ علي البعث وغيره والتذكير بأدلة ذلك

قال ﷻ:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾

بيان المناسبة:

بعد أن حكم الله ﷻ بمجيء يوم القيامة وقسم الناس فيها إلى قسمين الأشقياء والسعداء أتبع ذلك بسوق أنواع من الأدلة المشاهدة، التي لا يستطيع أحد إنكارها، ليلفت أنظار الناس إلى مظاهر قدرته تعالي علي بعث الأجساد والمعاد وصحة عقيدة التوحيد فقال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ ﴾ الآيات.

قال الإمام أبو السعود: قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير ما فصِّل من حديث الغاشية وما هو مبنيٌّ عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكارَهُ .اهـ[1]

(1) تفسير أبي السعود:٧/ ٦.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل، مع السماء والجبال والأرض، ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم؛ فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم. اهـ [1]

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فذكرهم نعم الله ودلائل توحيده، ولا تلح عليهم، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يذكرون ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ إذ ما عليك إلا البلاغ.

وفي قوله: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: لست عليهم بمسلط، قاله الضحاك.

الثاني: لست عليهم بجبار، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

الثالث: برب، قاله الحسن.

ثم قال: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ فلست له بمذكر، لأنه لا يقبل تذكيرك قاله السدي. الثاني: إلا من تولى وكفر فكله على الله تعالى، وهذا قبل القتال ثم أمر بقتالهم، قاله الحسن.

وفي ﴿ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ وجهان:

أحدهما: تولى عن الحق وكفر بالنعمة.

الثاني: تولى عن الرسول وكفر بالله تعالى، قاله الضحاك.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ يعني جهنم، ويحتمل أن يريد الخلود فيها، لأنه يصير بالاستدامة أكبر من المنقطع، وذلك أنهم قد عُذّبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر فكان عذاب جهنم والخلود فيها هو الأكبر.

قال الإمام الرازي: إنما سماه العذاب الأكبر لوجوه:

أحدها: أنه قد بلغ حدّ عذاب الكفر وهو الأكبر، لأن ما عداه من عذاب الفسق دونه، ولهذا قال ﷻ: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾

[1] تفسير الكشاف للزمخشري: ٤/٧٤٥.

وثانيها: هو العذاب في الدرك الأسفل في النار.

وثالثها: أنه قد يكون العذاب الأكبر حاصلاً في الدنيا، وذلك بالقتل وسبي الذرية وغنيمة الأموال، والقول الأول أولى وأقرب. اهـ [1]

قوله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ يعني حسابهم على أعمالهم بكل صغيرة وكبيرة

وقليل وكثير كما قال ﷻ: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [2]

ويقال: جزاءهم على أعمالهم فيكون ذلك جامعاً بين الوعد والوعيد ثواباً على الطاعات وعقاباً على المعاصي. [3]

والإتيان بثم للإشعار ما بين إيابهم وبدء حسابهم قال ﷻ: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

ومن الواضح مجيء قوله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ بعد قوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ تسلية للنبي ﷺ وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا، ثم إن الحساب في اليوم الآخر ليس خاصاً بهؤلاء، بل هو عام بجميع الخلائق ولكن إسناده لله ﷻ مما يدل على المعاني المتقدمة.

ومعنى (على) من قوله: ﴿ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أن حسابهم لتأكده في

[1] التفسير الكبير: ٣١/١٤٨ والآية من سورة السجدة: ٢١.

[2] سورة الكهف الآية: ٤٩.

[3] انظر النكت والعيون للماوردي: ٤/٤١٣ وبحر العلوم للسمرقندي: ٤/٤٠١.

حكمة الله يشبه الحق الذي فرضه الله على نفسه، وهذه الجملة هي المقصود من التعليل التي قبلها بمعنى التمهيد لها والإدماج لإثبات البعث، وفي ذلك إيذان بأن تأخير عقابهم إمهال فلا يحسبُوه انفلاتاً من العقاب.[1]

وجوه القراءات:

قوله ﷺ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ قرأ الجمهور ﴿الْإِبِلِ﴾ بكسرَ الباء وتخفيف اللام؛ والأصمعيُّ عن أبي عمرو : بإسكان الباء؛ وقرأ أبو جعفر والكسائي وعيسى « الإبلّ » بشد اللام وقالوا: إنما السحاب تشبيهاً بالإبل في كثرة ما بها من حاجة الناس كالإبل، حيث أطلق الاسم المشبه به عليه على طريق التشبيه والمجاز.[2]

قال صاحب الكشاف: ولم يدّع من زعم أن الإبل السحاب... إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيراً في أشعارهم، فجوّز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز .اهـ[3]

وقرأ الجمهور: ﴿ خُلِقَتْ ، رُفِعَتْ ، نُصِبَتْ ، سُطِحَتْ﴾ بضم فاء الفعل وكسر عين الفعل وتاء التأنيث الساكنة مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل في كل واحد منها منوي فيه عائد إلي ما قبله.

وقرأ عليّ ﷺ وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، ومحمد بن السَّمَيْفَع وأبوالعالية: خَلَقْتُ بفتح الفاء والعين علي بناء الفاعل وهو ضمير المتكلم وحده وحذف ضمير المفعول الراجع

[1]) انظر التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٤٠ وأضواء البيان: ٩/ ١٦٨والآية من سورة الحج:٤٧.

[2]) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٣٦٩، النشر ٢/ ٤٠٠، انظر البحر المحيط: ١٠/ ٤٧٢ وحاشية شيخ زاده علي تفسير البيضاوي:٨/ ٥٨٥ .

[3]) تفسير الكشاف للزمخشري:٤/ ٧٤٥ وانظر القراءات الشاذة لابن خالويه:ص ١٧٢.

إلي ما قبلها للعلم به والتقدير: خلقتُها ورَفعتُها ونَصبتُها وسَطحتُها.

وقرأ الحسن وهارون الرشيد وأبو رجاء:« سطّحتْ » بتشديد الطاء وإسكان التاء علي المبالغة. وكذلك قرأ الجماعة، إلا خففوا الطاء.

وفي قوله: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ قرأ الجمهور: « بمصيطِر» بالصَّاد بإبدال السين صادًا، لتوافق الطاء في الاستعلاء والإطباق، ومثل ذلك قوله:﴿ وَزَادَهُ بَصْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ وأصله: (بسطة) فأبدل من السين صادًا، لتوافق الطاء في الإطباق، وكذلك قالوا: الصراط في السراط.

وقرأ الكسائي وهشام عن ابن عامر: بالسِّين علي الأصل، وقرأ خلف وحمزة في رواية: بإشمام الصاد صوت الزاي، وعن خلاّد: وجهان.

وقرأ هارون الأعور: « بِمَصَيْطَرٍ » بفتح الطاء اسم مفعول وهي لغة تميم فإنَّ سيطرَ عندهم متعدٍّ، ويدل على ذلك فعل المطاوعة وهو: تَسَيْطَرُ ولم يجئ اسم على مفعل إلا مسيطر، ومبيقر، ومهيمن، ومبيطر؛ من سيطر وهيمن، وبيطر.

قوله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ قرأ العامة: على تخفيف الياء، مصدر: آب يؤوب إياباً، إذا رجع، كقام يقوم قياماً...

وقرأ أبو جعفر وشيبة بتشديد الياء وذكر لها وجهين:

الأول: كونه مصدرًا علي وزن فِيْعَالٌ من أيَّب علي وزن فيعل نحو: حَوْقَل حيقالاً وسيطر سيطارًا أصله إيواب، فلما اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت الياء فصارت إيَّاباً.

والثاني: كونه مصدرًا علي وزن فعَّالٌ نحو: كلم كلامًا أصله أوواب قلبت الواو الأولي ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، كما في دِيْوَان أصله دووان فصار إيوابًا، ثم فعل ما مرّ فصار إيَّابًا.[1]

[1]) الحجة في القراءات السبع ص ٣٣٥، النشر ٢/ ٣٧٩، انظر تفسير القرطبي:٢٢/ ٢٥١ فما

وجوه الإعراب:

قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (كَيْفَ) حال مقدم من ضمير (خُلِقَتْ) والجملة بدل اشتمال من (الإبِلِ) والعامل فيه هو العامل في المبدل منه وهو فعل ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ .

والفاء في قوله ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ للتفريع، وترتيب ما بعدها على ما قبلها.

والأمر مستعمل في طلب الاستمرار والدوام في دعوته الناس إلى الحق ومفعول: " فذكر " محذوف العلم به.

وجملة ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ تعليل للأمر بالمواظبة على تبليغ الناس ما أمره بتبليغه. وجملة ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ بدل اشتمال من جملة القصر باعتبار جانب النفي الذي يفيده القصر.

وقوله ﷻ ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ كلام معترض بين قوله: ﴿ فَذَكِّرْ . . ﴾ وبين قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ والاستثناء فيه استثناء منقطع، و " إلا " بمعنى لكن، و " مَنْ " موصولة مبتدأ . والخبر. " فيعذبه الله العذاب الأكبر " ودخلت الفاء في الخبر إذ كان الكلام استدراكاً وكان المبتدأ موصولاً فأشبه بموقعه وبعمومه الشروط فأدخلت الفاء في جوابه ومثله كثير كقوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [1]

وجوز كون الاستثناء متصلاً ومن موصولة لا غير والمراد بالعذاب استحقاق العذاب أي فذكر إلا من انقطع طمعك عن إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر،والأول أولى.

قال ابن عاشور: ونفي كونه ﷺ مصيطراً عليهم خبر مستعمل في غير

بعدها وروح المعاني:٣٠/ ١١٧وتفسير اللباب: ٣١٩/١٦ فما بعدها وحاشية شيخ زاده: ٨/ ٥٨٦ وتفسير أبي السعود:٧/ ٦: ٧.

[1]) انظر تفسير أبي السعود:٧/ ٦: ٧ وروح المعاني: ٣٠/ ١١٧ .

الإخبار لأن النبي ﷺ يعلم أنه لم يكلف بإكراههم على الإيمان، فالخبر بهذا النفي مستعمل كناية عن التطمين برفع التبعة عنه من جراء استمرار أكثرهم على الكفر، فلا نسخ لحكم هذه الآية بآيات الأمر بقتالهم .اهـ[1]

الأسرار البلاغية:

في هذه الآيات الكريمات من ضروب الفصاحة والبديع ما يلي:

١ــ جناس الاشتقاق[2] ﴿فَذَكِّرْ مُذَكِّرٌ﴾ وبين ﴿فَيُعَذِّبُهُ . . الْعَذَابَ﴾.

٢ــ أسلوب القصر؛ فالقصر المستفاد بـ ﴿ إِنَّمَا ﴾ قصر إضافي، أي أنت مذكر لستَ وكيلاً على تحصيل تذكرهم فلا تتحرج من عدم تذكرهم فأنت غير مقصر في تذكيرهم، وهذا تطمين لنفسه الزكية.

٣ــ الطباق[3] في الحرف بين قوله: ﴿ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ و ﴿ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ وفي تصدير الجملتين الكريمتين بأنَّ وتقديم خبرها وعطف الثانية على الأولى بكلمة (ثم) المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لشديد العذاب ما لا يخفى، وأنَّ إيابهم ليس إلا للجبار المقتدر على الانتقام.[4]

المعنى الإجمالي:

يقول تعالى ذكره حثًا للذين لا يصدقون بالرسول ﷺ ويستمرون في جهلهم وضلالهم وإنكارهم لأمر البعث والحساب والجزاء، وإنكارهم قدرة الله ﷻ على ما وصف في هذه السورة من العقاب والنكال الذي أعدّه لأهل

---

[1]) التحرير والتنوير: ٢٣٩/١٦.

[2]) الجناس: هو أن تجيء الكلمة تُجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها.اهـ بديع

[3]) المطابقة: وتسمى الطباق والتضاد أيضاً، وهي الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة. الإيضاح في علوم البلاغة جلال الدين القزويني: ١٠٩/١والبديع لابن المعتز:٧/١.

[4]) انظر تفسير أبي السعود:٧/ ٦: ٧ والتحرير والتنوير:٢٣٩/١٦ وصفوة التفاسير:٥٣/٢٠.

عداوته، والنعيم والكرامة التي أعدّها لأهل ولايته أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده وكمال قدرته. ومنها الإبل كيف خلقها ذلك الخلق البديع، وكيف سخرها لهم وذلّلها وجعلها تحمل حملها باركة، ثم تنهض به والذي خلق ذلك غير عزيز عليه أن يخلق ما وصف من هذه الأمور في الجنة والنار، يقول جلّ ثناؤه: أفلا ينظرون إلى الإبل فيعتبرون بها ويعلمون أن القُدرة التي قدر بها على خلقها، لن يُعجزه خلق ما شابهها.

ويتابع الله ﷻ لَفت أنظار هؤلاء المشركين إلَى عظَمته، وعظَمة ما خلَق فلَفت نظرهم إلَى السَّماء التي هي محط أنظارهم، وملتقى طلباتهم في سقيا

أنعامهم، كيف رفعت بلا عمد على ما لها من السعة والكبر والثقل والإحكام وبدون فطور أو تشقق على تطاول زمنها، ونثر فيها الكواكب والنجوم بلا عدد؟ فالله جلّت قدرته لا يُعجزه فعل شيء أراد فعله.

ولما ذكر ﷻ العالي من الحيوان الملابس للإنسان، والعالي من الأكوان أتبعه أعلى الأرض فلفت نظرهم إلى الجبال كيف أقيمت منتصبة لا تسقط فتنبسط في الأرض، ولكنها جعلها بقدرته ﷻ منتصبة جامدة، لا تبرح مكانها، ولا تزول عن موضعها لئلا تميد الأرض بأهلها، والنظر إليها مبعث هيبة وتعجب ويستفيد من وجودها وتسلسلها السالكون في البراري والقفار والأعجب من هذا أن كثيرًا من الينابيع المائية تنبع منها، وفيها منافع كثيرة ومعادن وفيرة ويتقطع منها أحجار ضخمة، ورخام ذو ألوان مختلفة بديعة.

ثم لفت نظرهم إلى الأرض كيف سويت وفرشت وبُسطت بطريقة تجعل الناس يتمكنون من الانتفاع بخيرها، ومن الاستقرار عليها، وهذا لا ينافي كونها كروية، لأن الكرة إذا اشتد عظمها. . كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الانتفاع بها.

وبعد هذا التوبيخ لأولئك المشركين الذين عموا وصموا عن الحق، ولم ولم يعتبروا، ولم يتفكروا، في آيات الله الدالة على كمال قدرته ووحدانيته. . أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يداوم على التذكير بدعوة الحق فقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ أي: إذا كان الأمر كما بينا لك - أيها الرسول الكريم - من أحوال الناس يوم الغاشية، ومن أننا نحن الذين أوجدنا هذا الكون بقدرتنا.. فداوم - أيها الرسول الكريم - على دعوة الناس للدين الحق وتذكيرهم بمظاهر قدرتنا وآياتنا في الآفاق وآلائنا على العباد، فهذه وظيفتك التي لا وظيفة لك سواها، وكلُ أمرهم بعد ذلك إلينا، فأنت لست بمتسلط تجبرهم على الإيمان والاستقامة أو مُكرهٍ لهم على إتباعك، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب، لكن من تولى عن الإيمان فكفر بآياتنا ورسولنا ولقائنا فيعذبه الله العذاب الأكبر، وهو عذاب الآخرة.

ثم ختم الله ﷻ السورةَ الكريمة بآيتين قصيرتين جليلتين أكد فيهما رجوعَ الناس إليه وحسابَهم الدقيق في ذلك اليوم فقال: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أي: إن إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت لا إلى أحد سوانا، ثم إن علينا وحدنا - أيضا - حسابهم على أعمالهم، ومجازاتهم عليها بالجزاء الذي نراه مناسبا لهم.[1]

ما ترشد إليه الآيات:

١ــ بيان كمال قدرة الله ﷻ وحسن تدبيره مع تقرير عقيدة البعث والجزاء بالدعوة إلى النظر في الأدلة الموجبة للإيمان به ﷻ فهذه المشاهد معروفة لنظر الانسان حيثما كان: الحيوان والسماء والأرض والجبال.

---

[1]) انظر تفسير الطبري: ٣٨٩/٢٤ ونظم الدرر للبقاعي: ٤١٣/٩ والتفسير الوسيط اد/ محمد سيد طنطاوي: ٣٧٨/١٥ وأضواء البيان للشنقيطي: ٨/ ١٦٦ وأيسر التفاسير لأسعد حومد.

وأيّاً ما كان حظ الانسان من العلم والحضارة فهذه مشاهد داخلة في عالَمه وإدراكه ويذكرنا الله ﷻ بأن ننظر ونعتبرَ بهذه القدرة الخارقة والتدبير المحكَم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: نبَّه الله ﷻ في هذه الآيات البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. اهـ[1]

وقال الإمام البقاعي: ولعل التذكير بهذه الأمور يوصل المتذكر إذا أقبل عليه بحسن رغبة إلى أن يعرف أن الإبل تشبه الأنفس المطمئنة الذلولة المطيعة المنقادة، والسماء تشبه الأرواح القدسية النورانية، والجبال تشبه العقول والمعارف الثابتة الراسخة، والأرض تشبه البدن المشتمل على الأعضاء والأركان. اهـ[2]

وقد ذكر الإمام الرازي في بيان وجه المناسبة بين الإبل وبين السماء والجبال والأرض وجهان:

الأول: أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيراً، لأن بلدهم بلدة خالية من الزرع، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيراً ما يسيرون عليها في المهامة والقفار مستوحشين منفردين عن الناس ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء، لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه، فيرى منظراً عجيباً، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر

[1] تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٥٧: ٤٥٨.

[2] نظم الدرر للبقاعي: ٩/ ٤١٤.

إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئاً سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية.

الوجه الثاني: أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين: منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معاً، ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب، وليس للشهوة فيها نصيب.

والقسم الأول: كالإنسان الحسن الوجه، والبساتين النزهة، والذهب والفضة وغيرها، فهذه الأشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم، إلا أنها متعلق الشهوة ومَطلوبة للنفس، فلم يأمر تعالى بالنظر فيها، لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعاً عن إتمام النظر والفكر وسبباً لاستغراق النفس في محبته.

أما القسم الثاني: فهو كالحيوانات التي لا يكون في صورتها حسن، ولكن يكون داعية تركيبها حكم باللغة وهي مثل الإبل وغيرها، إلا أن ذكر الإبل ههنا أولى لأن إلف العرب بها أكثر وكذا السماء والجبال والأرض، فإن دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة، وليس فيها ما يكون نصيباً للشهوة، فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الأمن من زحمة الشهوة لا جرم أمر الله ﷻ بالتدبر فيها. اهـ[1]

وقال سيد قطب رحمه الله: إن هذه المشاهد ــ الإبل، السماء، الجبال والأرض ــ لتوحي إلى القلب شيئاً بمجرد النظر الواعي، والتأمل الصاحي وهذا القدر يكفي لاستجاشة الوجدان واستحياء القلب، وتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق.

[1] التفسير الكبير: ٣١/ ١٥٨: ١٥٩.

ونقف وقفة قصيرة أمام جمال التناسق التصويري لمجموعة المشهد الكوني لنرى كيف يخاطب القرآن الوجدان الديني بلغة الجمال الفني، وكيف يعتنقان في حسّ المؤمن الشاعر بجمال الوجود. . إن المشهد الكلي يضم مشهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة. وفي هذا المدى المتطاول تبرز الجبال منصوبة السنان... وتبرز الجمال منصوبة السنام . . خطان أفقيان وخطان رأسيان في المشهد الهائل في المساحة الشاسعة، ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات! على طريقة القرآن في عرض المشاهد، وفي التعبير بالتصوير على وجه الإجمال. اهـ [1]

٢ــ بيان أن الداعي إلى الله ﷻ مهمته الحقيقية دعوةُ الناس الى ما فيه خيرهم والتذكير بالله ﷻ دون هداية القلوب فإنما إلى الله تعالى وحده إذ القلوب بين أصابع الرحمن، لا يقدر عليها إنسان، والجهاد الذي شرعه الله لم يكن لحمل

الناس على الإيمان، وإنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة كي تبلغهم فلا يمنعوا من سماعها، ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها. [2]

٣ــ التحذير من مخالفة دعوة النبي ﷺ ورسالته، فقد توعد الله ﷻ كل من تولي، وكلف نفسه السوية، وفطرته المستقيمة للإعراض عن الوعظ والتذكير، وأصر على كفره، وتطاول علي مقام النبوة بالعذاب الأكبر الذي لا عذاب فوقه، وهو عذاب الآخرة.

٤ــ تضمنت السورة الكريمة في ختامها ما يصلح للوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فإن مصير البشرية بعد الموت إلى الله ﷻ وحسابهم إليه وحده يحاسبون بكل صغيرة وكبيرة، وقليل وكثير، وهذه الحال تقتضي الإيمان به ﷻ وطاعته طلبا للنجاة من عذابه والفوز برحمته، وهو مطلب كل عاقل لو أن الناس

[1]) في ظلال القرآن:٨/٣٠.

[2]) انظر المصدر السابق.

يفكرون .. والحساب وإن كان حقاً لله ﷻ ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه إلا أنه ﷻ جعل الحساب واجبًا عليه، إما بحكم الوعد الذي لا خلف فيه، وإما بمقتضي الحكمة والعدل، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم، لكان ذلك شبيهاً بكونه تعالى راضياً بذلك الظلم، وتعالى الله عنه فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة. [1]

قال عمر بن الخطاب ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على الله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ إنما خف الحساب فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا نفوسهم فى الدنيا، ومحاسبة النفس تكون بالورع، وموازنتها تكون بمشاهدة عين اليقين، والتزين للعرض يكون بمخافة الملك الأكبر.

وعن على ﷺ: أما بعد فان المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من الدنيا فلا تكثرنه فرحا، وما فاتك منها فلا تتبعنه أسفا، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلفت، وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت. [2]

[1]) انظر التفسير الكبير:٣١/ ١٦٠ والتفسير المنير د/ وهبة الزحيلي: ٣٠/٢١٨.

[2]) روح البيان لإسماعيل حقي:١٧/٢٢٣ وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم: ١/٢٦.

- التفسير الوسيط اد/ محمد سيد طنطاوي
- تيسير الكريم المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي
- الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله القرطبي
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر الطبري
- حاشية شيخ زاده علي تفسير البيضاوي محمد بن مصلح القوجوي
- روح البيان لإسماعيل حقي
- روح المعاني للعلامة شهاب الدين الألوسى
- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزى
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين النيسابوري
- فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكانى
- في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل جار الله الزمخشري
- لباب النقول في أسباب النزول للإمام السيوطي
- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي
- مدارك التنزيل للإمام أبي البركات النسفي
- معالم التنزيل للإمام أبي محمد البغوي
- المفردات في غريب القرآن الكريم للراغب الأصفهاني
- النكت والعيون أبو الحسن علي الماوردي
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي

نداء الله الكريم في سورة التحريم

[دراسة تحليلية موضوعية]

د / خالد سعيد أحمد البسيوني

- التفسير الوسيط اد/ محمد سيد طنطاوي
- تيسير الكريم المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي
- الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله القرطبي
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر الطبري
- حاشية شيخ زاده علي تفسير البيضاوي محمد بن مصلح القوجوي
- روح البيان لإسماعيل حقي
- روح المعاني للعلامة شهاب الدين الألوسى
- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزى
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين النيسابوري
- فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكانى
- في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل جار الله الزمخشري
- لباب النقول في أسباب النزول للإمام السيوطي
- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي
- مدارك التنزيل للإمام أبي البركات النسفي
- معالم التنزيل للإمام أبي محمد البغوي
- المفردات في غريب القرآن الكريم للراغب الأصفهاني
- النكت والعيون أبو الحسن علي الماوردي
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي